# كتاب
# تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

ذكر الامير فخر الدين عثمان ابن سيف الدين يحيى ابن زين الدين صالح

كان فخر الدين شاباً عاقلاً فطناً ذا معرفة وافرة حوى منذ صغر سنّهِ فنوناً من المعارف مع كتابة حسنة وبلاغة وفصاحة. وكتب مدّةً على الزمامي شيخ الشام بالكتابة المنسوبة ثمّ جوّد على شهاب الدين ابن جوبان الكاتب بعض تجويد وتعلّم شيئاً من النحو وحفظ ملحة الاعراب للحريري وكان لهُ رغبة في مطالعة الكتب وتواريخ الاقدمين والنظر في كتبهم ولهُ معرفة في القريض والنثر بقريحة شريفة ونَسج المعاني وانشاء الكلام وكان اذا شرع في كتابة شيء من المكاتبات والمراسلات وغيرها اشغلهُ ذلك عن سماع كلام المخاطب لهُ وعن ردّ الجواب عليهِ. واجمع من رأوهُ على انهم لم يروا احداً على هذه الطريقة مثلهُ ومثل الشيخ الثقة (كذا) الذي كان نائباً عن ناظر الجيش في ديوان الجيش بالشام وبالجملة فالمذكور كان جامعاً محاسن كثيرة محتويًا على لطائف عدّة منها ما كان يحفظهُ لبديع الزمان من نظم ونثر وبعض معرفة بالجبر والمقابلة وصناعة الحساب اشتغل في ذلك على نجم الدين كاتب الميناء في بيروت. وتولّى رئاسة ابيهِ بعد وفاتهِ سنة تسعين وسبعمائة (١٣٨٨ م) وكان عمرهُ اذ ذاك (١١١٣) قريباً من ثماني عشرة سنة فحزّم رأيهُ وساس نفسهُ سياسةً تعجز عنها الشيوخ الكبار. وسمعتُ من جماعة شيوخ لهم قدمةٌ في السنّ من البيت ومن غيرهِ انهُ لم ينشأ في البيت مثلهُ في صغر سنّهِ فسلك في رئاستهِ احسن طريقة فشكرهُ قومهُ وكان الناس يتعجّبون من حسن عقلهِ وسياستهِ في صغر سنهِ مع انهُ قاسى في ايّامهِ صعوبةً ومشقّة من اختلاف الدول وما جرى بينها من الفتن مع جملة الديون الكثيرة المتخلفة عن والدهِ والمغارم والكُلَف بتغيّرات نوّاب الشام في تلك السنين. ومع هذا جميعهِ كان ثابت الجأش رابط الجزم قويّ الهمّة شديد العزم حجّ الى البيت الحرام مع ابيهِ كما تقدّم ذكرهُ وكان المذكور متولّياً جميع امور ابيهِ

ذكر بعض حوادث جرت في ايّامهِ

في سنة احدى وتسعين وسبعمائة (١٣٧٩ م) خرج السلطان الملك الظاهر برقوق

من سجن الكرك وحضر الى دمشق وحاصرها بعد ان كسر نائبها جنتمر. وكان في ذلك الوقت دولت بار السنجاري عينهُ امراء الطبلخانات بدمشق متولياً في بيروت. فارسل السلطان برقوق مرسومهُ وهو محاصر لدمشق الى امراء العرب يستدعيهم بالحضور اليهِ ورسم لهم ان يحملوا على دولت بار المتولي ويمكوهُ ان امتنع عن الحضور معهم. وورد ايضاً على دولت بار المذكور مرسوم بمثل ذلك. فاتفقوا جميعاً وتوجهوا الى السلطان برقوق (١ وهو مقيم (٢١١) على قبة يلبغا محاصراً لدمشق وطلب منهم رصاص منجنيق كان في بيروت فارسلوا عزّ الدين حسن ابن ظهير الدين علي بن جواد لاحضار ذلك

ونظر السلطان برقوق امراء العرب بعين المحبة واستمرُّوا عندهُ في هناء حتى حضر ترغماش منطاش بالسلطان حاجي الملقَّب بالمنصور وبالعساكر المصريَّة. فتوجه السلطان برقوق الى شقحب لقتال منطاش ومن حضر معهُ وجعل على ميمنتهِ كتبغا الحمويّ نائب حاب. وكان امراء العرب مع كتبغا المذكور في الميمنة فكسر عساكر منطاش ميمنة برقوق فانهزم كتبغا وامراء العرب معهُ وعادوا الى بلادهم وهم يظنُّون انَّ برقوق مكسور مع انهُ كان منصوراً في تلك الوقعة. فلمَّا وصل امراء العرب الى العرب وجدوا ارغون من قبل المنطاشيَّة قد حضر الى بيروت متولياً عليها واجتمع عليهِ علي ابن الاعمى واقاربهُ من تركمان كروان وجماعة من المنطاشيَّة. وكان العرب قد عصى عليهم لكون اقاربهم عند السلطان برقوق. فتوجَّهوا لمحاربتهم ونزل اهل العرب الى قرب الساحل ولم يحسنوا التدبير فاستظهر عليهم المنطاشيَّة وقتلوا منهم تسعين نفراً وسكوا منهم جماعة فستروا منهم البعض ووسَّطوا البعض ونهبوا ما وجدوا في بيروت لامراء العرب. وكان لفخر الدين المذكور في بيروت زيت وصابون وقماش وآلات مختلفة عن والدهِ فنهبوا ذلك جميعهُ (٢١٢) وحصل على المذكور بذلك ضرر كثير وكان قد حصل عند امراء العرب من هزيمتهم من شقحب حاصل كبير فتضاعف بما جرى في

١) جاء في حاشية الكتاب ما نصهُ: اسماء امراء العرب الذين توجَّهوا الى السلطان برقوق في قبة يلبغا: فخر الدين عثمان وعماد الدين اسماعيل ابن فتح الدين وعزّ الدين ابن حسن ابن ظهير الدين وسيف الدين ابو بكر وناصر الدين محمَّد ابن جمال الدين. وهؤلاء حضروا المصاف على شقحب خلا عماد الدين الذي رجع الى البلاد عند ما ركب برقوق الى جهة شقحب والتقى باهل العرب

الغرب من جهة المنطاشيّة . فما تمادى بهم المقام في البلاد حتى تعقّبهم من كان تخلّف عنهم من جماعتهم في شقحب واخبروهم بان السلطان برقوق انتصر على منطاش في وقعة شقحب ثم فاز به في وقعة ثانية بظاهر دمشق وقيل لهم ان السلطان توجّه منصورًا الى مصر وفي قبضته الخليفة والسلطان حاجي ابن الاشرف شعبان والقضاة الاربعة . فلمّا تحقّق امراء الغرب ذلك توجّهوا على الساحل الى مصر وكان توجّههم الى مصر في اواخر محرّم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ( ١٣٩٠م ) فكان وصولهم الى مصر عقيب وصول السلطان برقوق حتى ظنّ انهم حضروا في جملة العساكر معهُ وأنفق عليهم مثلما أنفق على العساكر واعطى السلطان برقوق نيابة الشام الطنبغا الجوبانيّ . فلمّا عاد امراء الغرب الى البلاد وجدوا عليّ بن الاعمى وجماعة تركمان كروان قد طلعوا واوقعوا باهل الغرب وكسروهم وقتلوا منهم جماعة ونهبوا عدّة قرى وكان في جملة المقتولين عماد الدين موسى ابن حسّان بن ارسلان وكان المذكور خير قومهِ واجودهم . فلمّا استقرّت قواعد الدولة الظاهريّة جرّدوا لمقاتلة تركمان كروان علاء الدين ابن الحرقوش (؟) وعشران البقاع فقتلوا عليّ بن الاعمى وهزموا جماعتهُ (٢١١٢) من التركمان وبعد مدّة مسكوا اخاهُ عمر ابن الاعمى ثمّ افرجوا عنهُ بعد حبسهِ مدّة وحصل عليهِ مشقّة

فلمّا جرت الواقعة التي قُتل فيها الجوباني اعطوا يلبغا الناصريّ نيابة الشام . فطلب امراء الغرب ان يكونوا مجرّدين بدمشق فتوجّه فخر الدين وجماعتهُ وحضروا مع يلبغا الناصريّ في الحروب التي كانت بينهُ وبين منطاش بدمشق وقتل جماعة امراء الغرب في هذه الحروب المذكورة عزّ الدين عبد العزيز العقلاني محتسب بيروت . ولمّا جرى المصافّ بين الناصري المذكور ونعير (؟) البدويّ بارض عذراء بظاهر دمشق كان امراء الغرب مع الناصريّ وكانت الكسرة على الناصري وجرى على عسكر الشام كلّ مكروه ونُهب امراء الغرب وجميع جماعتهم وجُرح منهم جماعة . وممّن جُرح فخر الدين المذكور في صدغهِ جرحًا بليغًا وفُقد شجاع الدين عبد الرحمان ابن عماد الدين اسماعيل ابن فتح الدين محمد . وقُتل في ذلك اليوم علاء الدين ابن الحاش (؟) وكان ذا سطوة وكان منطاش قد قتل قبلهُ اباهُ واخاهُ امسكهما في بعلبك . وكان السلطان قد اعطى علاء الدين المذكور امرة طبلخاناة . ولم تزل بلاد الشام في خباط حتى قُتل منطاش وحضر السلطان برقوق الى حلب وقتل الناصريّ فهدأت بلاد الشام بذلك

فلمَّا سكن الاضطراب جعل السلطان يولي على الشام في كلّ وقت نائبًا جديدًا فما زال امراء الغرب وفخر الدين في مغارم وتعب حتى تولَّى الشام تَنَم (٢ ١١٤)

فاستقرَّت القواعد وكانت أيام تَنَم احسن الايام وكان فخر الدين المذكور بعد وفاة ابيهِ قد شرع في تكملة ايوان بيروت الذي كان عمرهُ ابوهُ وكان تأخر من عملهِ البياض والطراز والترخيم فلم يكمل ذلك حتى جرت حركة المنطاشيَّة في بيروت فبطل الصنَّاع منهُ ولم يكمل ذلك. وكان فخر الدين قد شرع بوفاء ديون ابيهِ فوفى منها جانبًا ولم يطل عمرهُ حتى يكملها وكان كبير الاجتهاد عليها. وفاتهُ رحمهُ الله تعالى في الثلث الاوَّل من ليلة الاربعاء عشرين من شهر محرَّم سنة ستّ وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م). وقد اجمع قول اقاربهِ على أنهُ لمَّا توفي كان عمرهُ اربعًا وعشرين سنة ومنهم من قال انَّها تنقص شهرًا واحدًا ومنهم من قال انَّها تزيد اربعة عشر يومًا. ثمّ بعد وفاتهِ بأيام قليلة كان طاعون هلك فيهِ صبيان كثيرون واطفال وبعض الكبار. وكان عامًّا في سائر البلاد (١

والصغار الذين توفُّوا من البيت هم عبد الرحمان سميّ اخٍ لهُ توفّي قبلهُ واحمد وفاطمة وهؤلاء اخوة فخر الدين عثمان المذكور. وتوفي احمد ابن شرف الدين عيسى ابن شهاب الدين احمد وحسن ابن ناهض الدين حمزة ابن فتح الدين محمد ثمّ ابراهيم وكان سميُّ اخٍ لهُ توفّي قبلهُ وهو ابن ناصر الدين الحسين ابن تقيّ الدين ابراهيم بن الحسين ثم عليّ وكان سميّ اخٍ لهُ توفّي قبلهُ. ثمّ احمد ويوسف واختهما اولاد عزّ الدين ابن عليّ بن جواد. هؤلاء جميعهم كانت وفاتهم في جمادى الاولى سنة ستّ وتسعين وسبعمائة (١٣٩٤ م) (٢ ١١٤)

ذكر الامير شجاع الدين عبد الرحمان بن عماد الدين اسمٰعيل ابن فتح الدين محمد

كان هذا الامير شجاعًا جوادًا متطبّعًا باخلاق الناس وكان ابوهُ عماد الدين اسماعيل قد نزل لهُ عن اقطاعهِ وهو امريَّة عشرة فتجرَّد مع امراء الغرب في نوبة يلبغا الناصريّ صاحب الشام لمَّا حارب نعيرًا امير العرب على قرية عذراء بظاهر دمشق وانهزم الناصري المذكور وسلبت عربان نعير عسكر الشام وقتلت منهم خلقًا كثيرًا وسلبوا

١) جاء في هامش الكتاب بيتان في الطاعون:
« قُبِّح الطاعون داء ذهبتْ فيهِ الاحبَّة ارخص الانفسَ بيعًا كلّ محبوبٍ بحبَّه »

امراء الغرب وجرح منهم جماعة وقُتل من بينهم شجاع الدين عبد الرحمان المذكور وذلك سنة ستّ وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) وكان عمرهُ قريباً من سبع عشرة سنة وكان مع هذا السنّ رجلاً ملتحياً يعلق الشط بلحيته وبقي اهلهُ مدّة بعد فقدهِ يرجون انهُ اسير عرب فير ويسألون نفوسهم بعودهِ ثمَّ أيسوا بعد مدّة واسترجع ابوهُ الاقطاع عن ولدهِ لانهُ لم يكن لهُ ولد ذكر غيرهُ

ذكر الامير بهاء الدين داود بن علم الدين سليمان ابن شهاب الدين احمد

كان رجلاً عاقلاً قليل الجهل ساكن الطباع رَيض النفس لم يكن عندهُ التفات الى شيء من انواع الصيد واللهو ساس نفسهُ ودبَّر حالهُ بعقل ودعة. وأغري بالكتابة فكتب كتابة كيفة واجود كتابتهِ الثلث وهو دون طبقة ابيهِ المقدَّم ذكرهُ. واشتغل في صناعة الصياغة ونقشهُ جيّد اقتبس الصياغة من خالهِ ناصر الدين محمد (٧١١٤) ابن جمال الدين محمد ابن زين الدين. واقطاعهُ وحان ونصف وهو كان اوَّلاً لصلاح الدين من بني اولاد ابي الجيش من عرامون. وكان لصلاح الدين المذكور امريَّة خمسة. فاتَّفق شهاب الدين احمد واخوهُ سيف الدين يحيى ولدا زين الدين علىٰ اخذ هذه الامريَّة وان يجعلاها لولديهما علم الدين سليمان ابن شهاب الدين ولفخر الدين عثمان ابن سيف الدين فلم يحضر المنشور حتى توفّي علم الدين المذكور فنزل شهاب الدين لابن اخيهِ فخر الدين عمَّا كان باسم ولدهِ وبقيت امريَّة الخمسة بكمالها لفخر الدين. فلمَّا توفي فخر الدين في عشرين محرَّم سنة ستّ وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) جعلوا لبهاء الدين داود نصف امريَّة بواسطة عمّيهِ شرف الدين وسيف الدين ابي بكر السابق ذكرهما .

وكان مولد بهاء الدين داود نقلاً عن خطّ والدهِ المغرب من نهار الجمعة العاشر من شهر شعبان سنة اربع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٣م) الموافق للرابع من شهر شباط. ولمَّا جاء تيمرلنك الى بلاد الشام سنة ثلاث وثمانمائة (١٤٠٠م) وحضر الملك الناصر فرج بن برقوق لمحاربتهِ ارسل قبل وصولهِ الى دمشق مرسوماً الى تنكز بنا نائب بعلبك والكاشف على صيداء وبيروت ان يأخذ عشران البقاع وصيداء وبيروت ويلاقي السلطان الى دمشق فحضر تنكز بنا الى صيداء وبيروت فتوجَّه امراء الغرب معهُ وبينهم بهاء الدين المذكور وتوجَّه المقدَّمون والعشران من ثلاث معاملات ومعهم متولّي بيروت وهو (٧١١٤) ناصر الدين محمد بن سويدان البيدمري. فلمَّا وصلوا وادي دُمَّر وراء جبل الصالحيَّة

وجدوا عساكر السلطان هاربة من تيمرلنك فرجع المذكورون مع الهاربين وتصور لهم ان التيمرلنكيَّة تطردهم فـلاذوا هم ايضاً الى الهرب ورموا لبوسهم وبعض سلاحهم وقماشهم ليخفّفوا بذلك عن خيولهم ووثقوا على السرعة بالحفّة. ففارق كلّ خلّ خليلهُ ولم يلتفت الرفيق الى رفيقهِ وفُقد في ذلك اليوم بهاء الدين المذكور ولم يُعلم لهُ خبر. فمن رفقتهِ من قال: رايتهُ وصل الى البقاع. ومنهم من قال: كان قدّامنا عند وصولنا الى زبدل. ومنهم من قال: انقطع عند ميسنون ولم يصل الى البقاع. ومنهم من ظنَّ انهُ اختلط بعسكر السلطان وراح معهم الى بوادي التيم. واختلف القول في امر المذكور ولكن القول المرجّح انهُ تعدّى البقاع في اوائل الناس. والمظنون انهُ أُصيب عند بساتين زبدل او فوقها والله اعلم « وعند الله تلتقي الخصوم »

وقد أُصيب من عسكر السلطان في ذلك اليوم وبعدهُ من العشران واهل الجبال خلقٌ كثير ومن انفرد من العسكر اباده العدوّ سلباً وقتلاً وبيعت الخيل واللبوس والسلاح بارخص الاثمان. وجرى على المنفردين من العسكر ما لا يستحقّهُ عبّاد النار والاوثان فنسأل الله العفو والعافية. وكان هرب العسكر من تيمر لنك يوم الجمعة العشرين من جمادى الاول سنة ثلاث وثمانمائة ( ١٤٠٠ م ) وهو اليوم الذي فُقد فيهِ بهاء الدين المذكور ( التتمّة للآتي )

# المشاهد الفتّانة في رحلة الاستانة

للاب بولس جرون البسوعي ( تتمّة لما سبق )

٥

وصفنا في مقالتنا الاولى شيئاً من الآثار القديمة التي تزيّن الاستانة وتذكر مفاخرها الغابرة فبقي علينا ان نورد عن محاسنها الحاضرة ما راقنا مدّة اقامتنا فيها

انَّ في عاصمة الدولة العثمانيَّة اوقعها بين قارّتي اوربّة واسيَّة آثاراً لتمدُّنين مختلفين احدهما مستحدثٌ جديد يأتيها من العالم الاوربّي والآخر قديم وهو ثمرة الشرق. فامّا الاوّل فلا حاجة الى الاطالة في وصفهِ وهو عبارة عن دور رحبة حافلة بلباب الغناء ومخازن كبرى تزدحم فيها الباعة والمشترون ومراسح ومطاعم الى غير ذلك